

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

شرح حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- "يرحم الله موسى قد أُوذى بأكثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ" ١

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي باب الصبر أورد النووي -رحمه الله- حديث ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: لما كان يوم حنين.. ٢.

والمقصود به غزوة حنين، وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما فتح مكة اجتمعت عليه تقييف وهازن، ونزلوا في وادي حنين، وهو وادٍ من وراء عرفة إلى ناحية الطائف، بين مكة والطائف، وبينه وبين مكة بضعة أميال، فكمروا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- في مضائق الوادي، فسمع بهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فخرج إليهم في شوال -بعد أن فتح مكة- في جيش كبير يقدر باثنين عشر ألفاً من المقاتلين، عشرة آلاف منهم كانوا قد ساروا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من المدينة وهم الذين فتحوا مكة، وألفان كانوا من أسلم في مكة عام الفتح، فخرجوا وكان أولئك الذين خرجوا من أهل مكة فيهم من ثبت الإسلام في قلبه، وفيهم من كان متربداً متذبذباً، وفيهم من خرج وهو على دينه يريد أن ينظر، وأن يرى النصر والوقعة تكون لمن.

ولما انهزم المسلمون في أول الأمر، وانهالت عليهم السهام كأنها مطر يزعزعه الريح، فرجعوا منهزمين وثبت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وثبت معه نفر قليل لا يتجاوزون العشرة، وكان يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب^(٢)، وهو على بعلة لا تحسن الكروافر -عليه الصلاة والسلام-، وهذا من دلائل شجاعته وثباته العظيم -عليه الصلاة والسلام-، وكان صفوان بن أمية قد خرج، وكان قد خرج معه أخي له من غير أشقائه، فقال: اليوم بطل سحر محمد، والله لا يردهم منهزمين إلا البحر، كأنه فرح بهذا، فقال له صفوان: لا نقل هذا، فوالله لأن يربّني رجل من قريش خير من أن يربّني رجل من هوازن، فالقضية كانت بالنسبة إليه قبلية.

فالملخص أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رجع إليه أصحابه، لما أمر العباس أن ينادي فيهم: يا أصحاب السمرة، يا أصحاب الشجرة، وهم الذين يأبوا تحت الشجرة في وقعة الحديبية، الذين قال الله -عز وجل- عنهم: **{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}** [الفتح: ١٨]، وهو فتح خير.

^١ - أخرجه البخاري، كتاب المعازي، باب غزوة الطائف (٤/١٥٧٦)، رقم: (٤٠٨١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه (٢/٧٣٩)، رقم: (١٠٦٢).

^٢ - أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قال: خذها وأنا ابن فلان (٣/٢٨٧٧)، رقم: (١١٠٧)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (٣/١٤٠٠)، رقم: (١٧٧٦).

فالملتصقون أنهم عطفوا عليه عطفة البقر على ولدها، حتى إن جمل الرجل ليأتي أن ينقاد معه لكثرة السهام، فينزل عنه، ويأتي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- راجلاً، حتى اجتمع حوله رجال كثير، ففتح الله عز وجل- على أيديهم، فكان عند ذلك أن اشتد القتال فنظر إليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- يجتلدون بالسيوف، فقال: ((الآن حمي الوطيس))^(٣)، فراحـت مثلاً، الآن حمي الوطيس يعني: وطيس المعركة، فنصر الله -عز وجل- نبيه -صلى الله عليه وسلم- وأنزل الله جنوداً لم يروها.

فالحاصل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حصل له غنائم كثيرة جداً في وقعة حنين، وذلك أن مالك بن عوف النصري وكان قائداً لهوازن كان قد أمرهم أن يخرجوا بنسائهم وأطفالهم وأموالهم وذرارتهم، من أجل أن يثبت الواحد منهم في أرض المعركة إذا رأى كل من وراءه خلف ظهره، فيكون ذلك تثبيتاً له حتى لا ينهزم؛ لأنها المعركة المصيرية بالنسبة إليهم، فقد انتهت قريش، وفتح النبي -صلى الله عليه وسلم- مكة، وما بقي إلا أهل الطائف، فلما جاء بهم وجيء بشيخ كبير قد عمي بصره، وهو رجل مجنوب بالحروب وهو شاعر معروف من عقلاه العرب وحصفائهم، وهو دريد بن الصمة، فلما سمع ثغاء الشاة، ورغاء البعير، سأله عن ذلك، فقيل: إن عوف بن مالك النصري قد خرج بالناس وبنسائهم وذرارتهم وبأموالهم، فنبر بفمه، يعني: أصدر صوتاً يستهزئ، فقال: بئس ما صنع رويعي الغنم، يعني: أنه ليس قائداً معركة، ليس برجل محنك، فقالوا له: إنه فعل ذلك من أجل أن لا يفروا، فقال: إن الرجل إذا ذعر لا يلوى على شيء، يعني: إذا أصابه الهلع والفزع ما يسأل عن شيء، يذهل عن كل شيء، كما حصل في وقعة بدر لما انهزموا، وكان رجل يقال له ذو القلين لشدة فطنته وذكائه، فلما فر منهزاً لم يرده إلا الساحل، فرأى أبو سفيان قد ساحل بالعيير ونجا بها، فرأاه أبو سفيان وهو يحمل نعلاً وبرجله نعل آخر، فقال له: ما هذا؟ فلم ينقطن حتى قال له أبو سفيان ذلك، ويظن أنه لابس نعله.

حتى إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما رأى سلمة بن الأكوع في وقعة حنين، وقد سقط رداءه وانحل إزاره، فهو آخذ به ويجرى منهزاً، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: لقد لقي ذعراً أو خوفاً، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام.

فالأمر ليس بالسهل، إذا جاء الجد فعند ذلك لا يتذكر الرجل لا بيته ولا أهله ولا ولده، فالملتصقون أن دريد بن الصمة قال:

يا ليتني فيها جَذْعُ *** أَخْبُّ فيها وأَضْعَ

يعني: يتمنى أنه كان شيئاً، فلما هُزموا أسر، وأخذه النبي -صلى الله عليه وسلم- وأمر به فضررت عنقه، وهو شيخ كبير أعمى، وذلك أنه كان ذو رأي فيهم، فيقتل من أعادهم برأيه، كما يقتل من أعادهم بسيفه. وقد حصل للنبي -صلى الله عليه وسلم- غنائم كثيرة جداً باردة؛ لأن هؤلاء جهزوا له كل شيء، جاءوا بجميع الإبل والغنم والبقر والنساء والذراري، فأخذهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وجمعوا في أوطاس،

^٣ - أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (١٣٩٨/٣)، رقم: (١٧٧٥).

فصار النبي -صلى الله عليه وسلم- يعطي الرجل الواحد الغنم بين جبلين، حتى قال بعض كبراء قريش: إن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر -عليه الصلاة والسلام.

وأعطى الكباء من قريش، وأعطى أبا سفيان مائة من الإبل، وأعطى ابنه معاوية مائة من الإبل، وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل، وأعطى كثرين من هؤلاء الكباء، أعطاهم على مائة، وأعطى آخرين من رؤساء القبائل كتميم وغطfan ونحو ذلك أعطاهم، ولكن بعضهم لم يرض بما أعطاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأنه لم ينظر إليها من الناحية المادية فقط، بل نظر إليها من الناحية المعنوية، أن هذا وضع لمكانته، وهذه الواقعة تسجلها أشعارهم فتبقى تارياً يتحدث الناس بها أنه أعطى فلاناً من رؤسائهم خمسين من الإبل وأعطى فلاناً مائة، معنى ذلك أن قدره دونه.

وأعطى النبي -صلى الله عليه وسلم- الأقرع بن حابس سيد تميم مائة من الإبل، وأعطى عبيدة بن حصن الفزاري سيد فزاره مائة من الإبل أيضاً، وأعطى ناساً من أشراف العرب.

وأعطى عباس بن مرداس السُّلْمِي سيد سليم أقل فغضب وقال:

أَتَجْعَلُ نَهْيَيْ وَنَهْبَ الْعَبْدِ * * * بَيْنَ عَيْنَيْ وَالْأَقْرَعِ

وَمَا كُنْتُ دُونَ امْرَئٍ مِنْهُمَا * * * وَمَنْ تَضَعُ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعُ

فهو يريد أن يعرف الناس مكانته، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: اقطعوا عني لسانه، يعني: أعطوه، فأعطوه وكلوا له المائة، فسكت عند ذلك، وجعل يمدح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويمدح موافقه، ومشاهده في المعركة.

فالملتصد أنه أعطى أناساً من هؤلاء الكباء، ولم يعط الأنصار شيئاً، وهم الذين نصروا الدين، ولم يعط رجالاً لهم بلاء في دين الله -عز وجل.

قال رجل: والله إن هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله، حتى تكلم بعضهم وقال: إن محمداً لقي قومه فآثرهم، وتكلم من تكلم من الناس في هذه القضية، فهذا الرجل قال هذه الكلمة، ولربما هو عند نفسه أنه صادع بالحق، ولما سمع ابن مسعود رضي الله عنه- هذه الكلمة، قال: والله لأخبرن رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

قال المؤرخون: إن هذا الرجل هو معتب بن قشير، المعروف أن معتب من المنافقين، وهذه غير الواقعة الثانية التي قام فيها الرجل الذي هو أصل الخوارج، تلك في ذهيبة أرسلها علي رضي الله عنه- إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- من اليمن، فقسمها النبي -صلى الله عليه وسلم- بين رجال فقال ذلك الرجل: يا رسول الله، اعدل فإني لم تعدل، وهو الذي قال فيه خالد بن الوليد رضي الله عنه- يا رسول الله، دعني أضرب عنقه، فقال: لا، وقال فيه: **(يخرج من ضيق) هذا أقوام تحقرن صلاتكم عند صلاتهم، وصومكم**

عند صيامهم، وقراءتكم عند قراءتهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية^(٤) وهذه القصة في الذهيبة التي أرسلها عليٌّ، وبعضهم يخلط بين هذه الواقعة وتلك، فال الواقع أنهمما واقعنان.

فتغير وجه النبي -صلى الله عليه وسلم- لما أخبره ابن مسعود حتى كان كالصرف، أي: أحمر خالص من شدة الأثر والضيق، فإن الإنسان إذا سمع خبراً لا يسره أثر ذلك في وجهه، وقد جاء في وقائع أخرى لما خرج على أصحابه وهم يتجادلون في القدر، جاء في صفتة -صلى الله عليه وسلم- عند ذاك لما غضب وقال: بهذا أمرتم إلى آخركم، قال الراوي: حتى كأنما فُقئ في وجهه حب الرمان^(٥)، يعني صار شديد الحمرة. ثم قال: ((فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله، يرحم الله موسى...))، نكمل الكلام في مرة قادمة، وأسأل الله عز وجل- أن ينفعنا بما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

^٤ - أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب -عليه السلام- وخالد بن الوليد -رضي الله عنه- إلى اليمن قبل حجة الوداع (١٥٨١/٤)، رقم: (٤٠٩٤)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (٧٤١/٢)، رقم: (١٠٦٤).

^٥ - أخرجه ابن ماجه، باب في القدر (٣٣/١)، رقم: (٨٥)، وأحمد (٢٥٠/١١)، رقم: (٦٦٦٨).